المسألة الثَّقافية عند فؤاد زكريا ودلالتها الاجتماعية

"The culture issue, according to Fouad Zakaria,and its social significance"

الباحث/ عبد المحسن وفقي عبد المحسن

ملخص :

مثّلت المسألة الثقافية واحدة من أبرز الموضوعات التي تناولها – من زوايا عديدة – كثير من المفكرين والفلاسفة والمثقفين أنفسهم، على مستوى العالم، ونظرا لأهمية الثَّقافة والمثّقف وارتباطهما بتقدم المجتمعات ورقيها، فقد تناولها المفكر فؤاد زكريا، شرحاً وتحليلاً ونقداً، فكشف عن أهمية الثّقافة ورسالة المثقف في التنمية الاجتماعية للأفراد والمجتمع .

وتعد مسألة الثَّقافة – عند زكريا– من المسائل الإشكالية ؛ نظراً لتعدد التعريفات للمصطلح ، وللتباين في النظرة إلى خصوصية وطبيعة الثّقافة ، ومن ثم الاختلاف حول مصادر الثّقافة ، هذا بالإضافة إلى التباين حول معايير التقييم للثّقافة الحقيقية وغيرها من الأبعاد المرتبطة بها ولاسيما تأثر الثقافة والمثقف بالنظم الاجتماعية ، ولم يكتفِ الدكتور فؤاد زكريا بمجرد عرض هذه المسائل ، وإنما سعى لوضع حلول لها أبرزها أهمية صياغة مشروع قومي تكون من أولوياته النهضة الثقافية .

الكلمات المفتاحية : الثّقافة ، المثقف ، المجتمع ، التعريب ، فؤاد زكريا .

"The culture issue, according to Fouad Zakaria,and its social significance"

Abstract :

The cultural issue represented one of the most prominent topics that were dealt with from many thinkers, and intellectuals themselves, worldwide.In view of the importance of culture and the intellectual and their connection to the progress and prosperity of societies , the thinker Fouad Zakaria dealt with it , Explanation,analysis and criticism,revealing the importance of culture and the message of the intellectual in the social development of individuals and society.

The issue of culture for Zakaria is one of the problematic issues Due to the multiplicity of the term, and the discrepancy in the view of the specificity and nature of culture , and then the disagreement about the sources of culture, this is in addition to the discrepancy about evaluation criteria for real culture and other dimensions associated with it , especially the influence of culture and the intellectual on social systems. Dr.Fouad Zakaria was not satisfied with simply presenting these issues Rather, he sought to find solution to it , most notably the importance of formulating national project whose priorites would be the cultural renaissance .

key words :

– Fouad Zakaria- Culture- The intellectual- Society

تقديم :

ليس مصادفةً أن تحتل مسألة الثّقافة حيزاً كبيراً من اهتمام المفكرين سواء المحليين، أو العالميين ؛ لما للثّقافة من أهمية اجتماعية تتجاوز الأهداف الذاتية للمثقف أو حتى مكانته الاجتماعية ؛ إلى ما هو أعمق وأبعد من ذلك يتمثل في كونه مسئولا عن مجتمعه وتطلعات أفراده، وتعكس درجة الإحساس بالمسئولية التفاوت في فاعلية المثقف داخل مجتمعه أو تجاوزها لفاعليةٍ أكثر اتساعا لتشمل أبعاد إنسانية للبشرية كافة، لذا فنجد تفاوتاً في أنماط المثقفين بينَ المثقف المحلي والعالمي، ولكن تبقي الفاعلية هي انعكاس لرسالة المثُقف الحقيقية، تجاه مجتمعه بصفة خاصة والإنسانية بصفة عامة .

ومما يؤكد أهمية تناول مسألة الثّقافة والمثقف هي التطورات الحادثة في عالم اليوم، وتداعياتها على مجتمعاتنا سواء سلبا أو إيجابا، ففي الحالتين ثمة حاجة لاستعادة دور المثقّف في حماية وتنمية الوعي الاجتماعي وتنوير مجتمعاتنا، ليُعزز من قدرات شعوبنا على مواجهه التحديات الجديدة . في ظل ما يحيط بمجتمعاتنا من نواتج ثقافية عالمية، ومؤثرات ظاهرة حينا وخفية في أغلب الأحيان، مما يتعذر معه تجاهل دور المثقفين والمفكرين في حماية المجتمع وتقدمه.

وتأتي أسباب اختيار الموضوع ؛ نظراً لغياب الدراسات العربية لفكر الدكتور فؤاد زكريا، وأيضا لما للرجل من دور هام إزاء القضايا الفكرية تجاوز نطاقه المحلي؛ فقد عمل زكريا على تحليل للأزمة الثّقافية ووضع حلول لقناعته بدور الثّقافة في التنمية الاجتماعية، ودورها في تجديد العقل العربي .كما يأتي البحث استمرارا لنهج قسم الفلسفة الإسلامية في الكشف عن تصور مفكرينا المعاصرين في القضايا الفكرية والفلسفية؛ لما لها من أثر في إثراء حقل الفلسفة والفكر المعاصر. وقد حاول الباحث ضبط مصطلحي الثّقافة والمثقف، وإيضاح تصور زكريا لدور المثقّف في الدوائر الاجتماعية المحيطة وأسباب أزمة الثّقافة وأبرز حلوله، وذلك عن طريق الإجابة عن تساؤل الدراسة المتمركز حول: ما تصور فؤاد زكريا للمسألة الثّقافية ؟ وتتفرّع منه الأسئلة التالية :

١- ما الثّقافة ؟ ومن المثقّف ؟ .

٢- ما تصور فؤاد زكريا لأزمة الثّقافة ؟ وكيف يمكننا الخروج من أزمة الثّقافة ؟ .

وغيرها من التساؤلات التي حاولنا الإجابة عليها من خلال المنهج التحليلي المقارن النقدي؛ الذي يقوم على تحليل الآراء المختلفة ومقارنتها بغيرها. بالإضافة إلى توجيه النقد إن استدعى الأمر عند عرض الفكرة والتعقيب عليها. وجاء البحث كالأتي :

المحور الأول : محاولة زكريا ضبط مصطلحي الثّقافة والمثقف : اشكالية تعريف الثّقافة :

نبه الدكتور فؤاد زكريا إلى أن محاولة تعريف الثّقافة ستواجهها مشكلة الغموض الذي أحاط بمصطلح الثقّافة على الرغم من أنه أكثر الكلمات تداولًا في لغتنا، ويرجع ذلك إلى تعدد معانيها وسهولة الانزلاق من معنى إلى آخر دون التنبه إلى الفوارق بينها. ولم تسلم الكتابات الغربية من هذا الخلط في موضوع الثّقافة ، فرغم تعدد استخدام كلمة الثّقافة إلّا أن هذا لا يعني الاستقرار على معنى متفق عليه(زكريا ، ومصطفى، ١٩٨٨ص ١٥). لذا فإن طبيعة النقاشات حول أزمة الثّقافة، لم تُشيَّد على أسس واضحة، وذلك يرجع إلى عدم الاتفاق على معانٍ محددة للكلمات التي تُستخدم في بحث هذا الموضوع الحيوي، وإن كان الاتفاق على هذه المعاني لن يحل المشكلة؛ لأنَّ أزمة الثَّقافة لها أبعادٌأساسيَّة تتعلق بطرق تفكيرنا التَّقليديَّة، ووضع المثقف في المجتمع، ومدى احترام العقل والخيال الحر في أنظمة اجتماعية –حينذاك– يفضل معظمها أن يتحكم مباشرةً في اتجاهات تفكير الناس(زكريا ٢٠١٠،ص١٦).

وقد عرض زكريا لبعض معاني الثّقافة؛ ومن هذه المعاني؛ الثّقافة كما يستخدمها علماء الاجتماع وتعني:" ذلك الكل المُعقَّد الذي يشمل المعرفة والاعتقاد والفن والقانون والأخلاق والعرف، وأية قدرات وعادات أخرى يكتسبها الإنسان بوصفه فردًا في المجتمع". ويقترب من هذا التعريف الوارد في قاموس أكسفورد من أن الثّقافة هي:"الاتجاهات والقيم السائدة في مجتمع معين، كما تعبر عنها الرموز اللغوية والأساطير والطقوس وأساليب الحياة ومؤسسات المجتمع التعليمية والدينية والسياسية(زكريا،٢٠١٠، ص١٧:١٦).

ويعكس هذا المعنى علاقة الثّقافة بالمجتمع؛ لأن الثّقافة بهذا تكون سمة للمجتمع نفسه، أي سمة يكتسبها الفرد بحكم انتمائه لمجتمع معين، ولما كان الإنسان وحده هو الذي يضع رموزًا وأنظمةً تنعكس عليها قيمه واتجاهاته، لذلك أكد علماء الاجتماع أن الثَّقافة هي ما يميز الجماعة البشرية عن أي تجمع حيواني، وبهذا المعنى تمثل الثّقافة نقطة البداية في حياة الإنسان الواعية؛ لأن كل فرد يبدأ بقبول ثقافة مجتمعه، وقبول القيم والاتجاهات السائدة في المجتمع عن طريق التنشئة الاجتماعيَّة، ولذا تكون حركة الثّقافة ساكنة راكدة وبطيئة لاعتمادها على التوارث الآلي، ولاسيما في المجتمعات التَّقليديَّة، والثَّقافة بهذا المعنى شاملة، تُوجد حيثما يوجد أي مجتمع إنساني؛ لهذا نجد أشدَّ المجتمعات بدائية له ثقافة(زكريا، ٢٠١٠، ١٦: ١٩).

أما المعنى الثاني فهو الثَّقافة بالمعنى الإنساني الرفيع، ويُقصد بها :" صقل الذهن والذوق والسلوك وتنميته وتهذيبه أو بأنها ما ينتجه العقل أو الخيال البشري لتحقيق هذا الهدف، ويُلاحَظ أن هذا المعنى يرتبط بالأصل اللغوي لكلمة Culture في اللغات الأجنبيَّة، وهي كلمة تعني تعهد النبات وحرثه ورعايته حتى يثمر، (منها جاءت كلمة زراعة Agriculture)، بل إنَّه يرتبط بهذا المعنى نفسه في اللغة العربيَّة، لأنَّ الأصل «ثقف» يحمل معنى التَّهذيب والصقل والإعداد، وهنا تكون الثَّقافة عمليَّة رعاية وإعداد مستمر للعقل والروح البشرية، أمَّا معناها بوصفها منتجًا يُؤدِّي هذه الوظيفة، فلم تكتسبه إلا فيما بعد(زكريا،٢٠١٠،ص١٧).

ويغلب على هذا المعنى الطابع الفردي ؛ حيث تهتم الثّقافة بالإنسان وتكون غايتها السمو بالتكوين العقلي والروحي والأخلاقي له، وبطريقته في التفكير وتأمل العالم وتذوقه، أي أن تصبح الثَّقافة تكوينًا باطنًا، داخليًّا، تلقائيًّا في الإنسان، لا يعود معها محتاجًا إلى عون خارجي، لذا فالثّقافة بهذا المعنى ترتكز على الفرد؛ لأن عملية التهذيب والتنمية تتعلق بفرد معين، أو بمجموعة من الأفراد لكل منهم شخصية مستقلة، كما أن الناتج الثَّقافي في معناه الرفيع مرتبط ارتباطًا عُضويًّا بالفرد الذي أنتجه، لذا فالثّقافة هدف يسعى الفرد طوال حياته إلى تحقيقه، كما أنها سريعة الحركة؛ لأنَّ قوامها هو صقل الذات وسعيها الدائم إلى التنقل إلى مستويات أعلى، وانتقائية،لا يصل إليها إلَّا نخبة مختارة(زكريا٢٠١٠،ص١٧:١٩).

أما المعنى الثالث فهو الثّقافة الشعبية، وتعني:"الثَّقافة المنتشرة على نطاق واسع، ومن أنماطها في مصر ما يُعجَب فيها الإنسان المصري العادي مثل مسرحيات عادل إمام الخ. وهي ثقافة لها خصوصيتها وتتقاطع مع التعريفات السابقة للثَّقافة، فتختلف عن الثَّقافة بالمعنى الاجتماعي؛ لأنَّها تتعلق بنواتج وأعمال ثقافية يقوم بها متخصصون، مهما كان مستواهم، ولا تقتصر على القيّم والعادات وأساليب التفكير التي يتلقاها المرء تلقائيًّا من المجتمع، كما أنها تختلف – كما يدل اسمها– عن الثَّقافة الرفيعة؛لأنها تُرضي ذوقًا شعبيًّا واسع النطاق وتتعلق بنواتج ثقافية تحتاج في إبداعها وتذوقها إلى جهد يقل كثيرًا عن الذي تحتاج إليه الثَّقافة الرفيعة(زكريا،٢٠١٠،ص ١٩).

وبنظر الباحث تكمن أهمية تعريف زكريا للثقافة الشعبية؛ لادراكه عدم التجانس الثَّقافي في بنية المجتمع المصري، ووعيه بالتناقضات الموجودة ؛ لذا كشف عن التمايز بين الثَّقافتين في بنية المجتمع المصري؛ أي الازدواجية بين الثَّقافة الشعبية والثَّقافة الرفيعة، وهذا التمايز هو بحد ذاته انعكاس للواقع ولوجود التفاوت الطبقي في المجتمع نفسه،

وتَرجِع الازدواجية الثقافية إلى عدم إزالة الفوارق الاجتماعية تمامًا، لذا فالثَّقافة الرفيعة تقتصر على القلة وإلى جانبها ثقافة شعبية أوسع انتشارا(زكريا، ٢٠١٠،ص ١٩).

كما ذكر زكريا معنى الثّقافة المُستخدَم في علم الإنثربولوجيا وتعني: " كل ما يضيفه الإنسان إلى ما يتلقاه من الطبيعة أو ما يجده فيها. وهذا معنى واسع إلى أقصي حد، لأنه يشير إلى صفة رئيسة تميز الإنسان كنوع عن الحيوان. فالحيوان يتعامل مع الطبيعة كما هي، دون إضافة أو تأثير،أما الإنسان فيقوم بتحوير وإعادة تشكيل للطبيعة، ويمكن أن تتخذ طابعًا مادياً، مثل الأدوات المادية التي يستخدمها في الزراعة أو الصيد مثلًا، أو طابعاً معنوياً كالقواعد التي ينظم بها مجتمعه ويتعامل بها مع الآخرين(زكريا ، مصطفى ١٩٨٨،ص١٦) .

كما أشار زكريا لمعنى الثّقافة المُستخدَم في علم التاريخ، لذا فهو وثيق الصلة بالحضارة في جانبها المعنوي، وفيه تشمل الثّقافة العادات والقيم التي يتميز بها مجتمع آخر وأسلوب الحياة وطرق التفكير التي تسود حضارة معينة دون غيرها. وفي هذا المعني نقارن مجتمعاً بشرياً بآخر، فنتحدث – مثلًا –عن الثقافة الصينية أو الهندية، ونعني بها البناء المعنوي الشامل الذي يُميز أساليب الحياة والفكر في كلتا الحضارتين. ومن معاني الثّقافة التي أشار إليها زكريا:" النواتج الرفيعة التي لا يبدعها ولا يتذوقها إلا فئة محدودة من الناس داخل المجتمع الواحد، كالشعر والموسيقي والفن التشكيلي والكتابات الثقافية بمختلف أنواعها. وهذا هو المعنى الذي نستخدمه حين نتحدث عن إنسان مثقف أو عن وزارة للثقافة تقوم برعاية النواتج الرفيعة، ولا شأن لها طبعا بالثّقافة في معنييها الأول والثاني،..وهذا المعنى من أضيق معاني الثقافة(زكريا ومصطفى،١٩٨٨،ص١٥:١٦).

وتتضح علاقة الثّقافة بالمجتمع عند زكريا من تصوره لطبيعة الثَّقافة فهي:"جهد إيجابي خلاق ، تهدف لتنمية الناس بما يُثري حياتهم ويزيدها امتلاءًا، وهي عملية مستمرة لا تتوقف، وليس لها حد أدنى، أو سقف تقف عنده، ذلك لأن من طبيعة الثَّقافة أن تفتح أبوابًا لا تنتهي، لذا فالمثقف الحقيقي لا يعرف الشبع ولا يتوقف عند لحظة معينة لكي يقول: لقد أخذت كفايتي!(زكريا د،١٩٨٨،ص٤٢). وإذا كانت أهمية الثّقافة للمجتمع تتمثل في دورها في تنمية وعي الإنسان فلا يعني هذا أنها ترادف التعليم ؛ فالثَّقافة:" ليست التعليم الذي يتلقَّاه بعضُنا في المدارس أو المعاهد أو الجامعات، فهذا التعليم ما هو إلا الأساس أو الوسيلة للثَّقافة التي نبغيها لمواطنينا كعلاجٍ ناجعٍ للكثير من مواضع الضعف المتفشِّية بينهم (مندور،٢٠١٩، ص١٤).

المثقّف والمجتمع :

ليس من اليسير ضبط كلمة المثقف في اللغة العربية أيضا– بحسب زكريا– خاصة وأنها كلمة معاني تتجاوز ما يمكن أن يقابلها في اللغات الأجنبيَّة، فليست هناك كلمة واحدة مباشرة في تلك اللغات الأجنبيَّة، تؤدي بالضبط معنى المثقف، إذ نجد في الإنجليزية مثل كلمة Intellectual أو كلمة Intellectuel في الفرنسية تحمل معنًى عقليًّا في المحل الأوَّل، وفي الروسية تحمل كلمة أنتلجنسيا إلى جانب المعنى العقلي معنى سياسيًّا ثوريًّا(زكريا،٢٠١٠،ص١٩: ٢٠).

فقد أبرز مفكرنا التباين في استخدام كلمة المثقف في اللغة العربية عن نظائرها في المجتمعات الأخرى، فكلمة المثّقف في العربيَّة لا تعني من يستخدم ملكاته العقلية وحدها، بل تعني أيضًا من يستخدم خياله أو قدرته على الإبداع، كما تعني من يحب المعرفة، وتعني أيضًا من يتذوق الفن والأدب وغيرهما من نواتج الخيال. ولكن هل يعني ذلك أن كل متلقٍ مثقف ؟!. هنا يشترط زكريا في حالة كون المثَّقف متلقيًّا، أن يكون هو المتذوق المتلقي الواعي لذلك الإبداع، وأن يكون قادرًا على التمييز بين الإنتاج الرفيع والإنتاج الهابط، وإلا فليس مثقفًا بالمعنى الصحيح(زكريا، ٢٠١٠،ص٢٠).

والتباين في استخدام كلمة المثقف لا يكون بين مجتمع وآخر؛ إنما أحيانا نجده داخل المجتمع الواحد، يرجع لاختلاف العصور أو تطور المصطلح أو تفاوت النظرة للمثقف، ويثبت ذلك ملاحظة ادوار سعيد أن كلمة مثّقف في اللغة الإنجليزية:" قد تعنى المفكر، وقد ترتبط بعبارات مثل البرج العاجي وإثارة السخرية أو الاستهزاء وقد أكد هذا الاتجاه في التفكير ما ذكره رايموند ويليامز بأن الكلمات الانجليزية التي تعنى المفكرين والصبغة الفكرية وطبقة المفكرين كانت ذات دلالات تحط من قدرها، وقد ظلت هذه الدلالات سائدة حتى منتصف القرن العشرين، وواضح أنها لا تزال قائمة(سعيد،٢٠٠٦،ص١٨:١٩).

وبالعودة إلى مفكرنا فنجده لم يكن معنيا بتحديد الفارق بين المثقف والمفكر، بقدر اهتمامه بالتأكيد على أهمية دور المثّقف في المجتمع فيؤكد أن:"طبيعة المثقف أن يكون متطلعًا إلى الأمام، وأن يستخدم فكره وفنه في سبيل تحقيق صورة مستقبلية للمجتمع الإنساني(زكريا،٢٠١٠،ص ٢٥). كما أن المثَّقف الحقيقي والمفكر المسئول لم يعد في وسعه أن يقف مما يجري في العالم أو في بلاده، موقف المتفرج، إذ أن حياد المتفرج وتنزهه المزعوم لا يزيد في عصرنا هذا على أن يكون عجزاً وسلبية .. إذ يسعى المفكر إلى تأكيد حقه في تدبير السياسة التي يسير عليها المجتمع البشري (زكريا،١٩٦٨،ص١٠).

وبتأكيد زكريا على حق المثّقف في تأمل وتدبير السياسة التي يسير عليها المجتمع، يختلف عن المفكر الدكتور زكي نجيب محمود، والذي انتقد اتجاه نفر من قادة الحياة الثقافية للكتابة السياسية الصرفة ، معتبرا أنهم بذلك يتركون ما يحسنون إلى ما لا يحسنون فيه (محمود،د.ت ص٧). ولكن هذا لا يُقلل من أهمية فاعلية المثقف في المجتمع ونهضته .

فبرأي الباحث إن رفض محمود أن تكون الكتابة السياسية هي المحك في تحديد المثّقف،لا يتعارض مع تأكيده على دور المثّقف الحقيقي في تغيير وتقدم مجتمعه ، فالمقياس الحقيقي للمثّقف هو مدى فاعليته وتأثيره بالمجتمع؛ لذا وصف المثقف بأنه:" إنسانٌ بضاعته أفكار، سواء أكانت تلك الأفكار من إبداعه هو أم كانت منقولة عن سواه، ولكنه آمنَ بها إيمانًا أقنعه بأن يحياها، ثم لا يقتصر على أن يحياها هو بشخصه، بل يريد أن يُقنِع بها الآخرين ليحيوها معه، والأرجح أن تكون هذه الأفكار من الصِّنف الذي يغيِّر الناس نحوَ ما يُظَنُّ أنه الأفضل،المثقف الذي أريده بهذا الحديث هو من طراز ديمقريطس الذي قال إنه يفضِّل لنفسه أن يظفر بفكرةٍ تتقدَّم بها الحياة على أن يظفر بمُلْك فارس المثقف الذي أريد من طراز الجاحظ الذي كانَ بطريقةِ تفكيره وتعبيره نقطةَ تحوُّل للثقافة العربية (محمود،د.ت ص١١).

وتعد فاعلية المثقف في المجتمع هي المعيار الأساسي للمثقف الحقيقي ، لذا نجد غرامشي يصنف المثقفين اعتماداً على مقدرتهم – أو عجزهم عن – أن يرتبطوا بالجماهير الصاعدة . فإذا تمكّنوا من ذلك كانوا مثقفين عضويين ؛ وإلا فهم مثقّفون اصطناعيون ومزيّفون (غرامشي، ١٩٧١،ص٧)، كما تشهد بلبلة المثقفين على عدم فاعلية المجتمع وركوده ، وتؤدي سلبية المثقف إلى تعريض مستقبل الأمة نفسه للخطر (العروي، ١٩٧٨ ، ص١٥١). بحسب العروي .

المحور الثاني :علاقة أزمة الثّقافة بالنظم الاجتماعية .

في سياق تحليل زكريا لأزمة الثّقافة وعلاقتها بالنظم الاجتماعية – الدول المتقدمة ودول العالم الثالث – المتباينة– نجده يُميِّز بين معنيين للأزمة واسع وضيق، المعنى الواسع للأزمة يُلازم مفهوم الثَّقافة؛ نظرا لعدم المناسبة بين الواقع وبين تطلع المثقف ذاته، لأن الوعي الذي يتميز به المثقف يجعل تفكيره خارجًا عن إطار ما هو قائم بالفعل، فكان المثقف في أغلب العصور خارجًا عن إطار القيّم الشائعة، أملاً في عالم أفضل، لذا كان يبشر دائمًا بوجود أزمة،..ومن هنا نجد لكل عصر من العصور أزمته الثَّقافية الخاصة به . وهي أزمة مزدوجة لها نمطان متضادان الأول عندما يسبق الفكر الواقع، إن الفكر بطبيعته أكثر مرونة على التحرك تجاه المستقبل وتخطي الموجود بالفعل، لذا

نجد المفكرين والفنانين والأدباء في عصر النهضة الأوروبية مثلًا يتطلعون بإنتاجهم الثَّقافي إلى عصر جديد لم يكتمل تحققه إلا بعد قرنين على الأقل، وكذا سبق فلاسفة عصر التنوير عصرهم بعشرات السنين(زكريا،٢٠١٠،ص٢٠).

وفي المقابل عندما تسبق تطورات العصر حركة الفكر كما في العصر الحديث فتعبر الأزمة عن عجز الفكر عن مواكبته للعصر، فنجد التغيرات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والتقنية التي تطرأ على الواقع أسرع من التَّغيرات التي تطرأ على الفكر، ويكون تغيير البنية الاجتماعيَّة أسرع وأسهل من تغيير عقول النَّاس وقيمهم وتفكيرهم وسلوكهم، ولذلك تتوالى الأزمات الثَّقافية وتأخذ في كل جيل شكلًا جديدًا وتُطرَح بمفاهيم جديدة، ولكنها نتاج عجز الفكر عن ملاحقة واقع التطور.. ولما كان صدام الفكر والواقع نتيجة للتفاعل بينهما، لذا فالأزمة الثقافية ملازمة للتطور الحضاري للإنسان، وهي علامة صحية تدل على وعي الإنسان بواقعه (زكريا،٢٠١٠،ص٢١).

أما المعنى الضيق للأزمة الثَّقافية، فيتمثل برأي زكريا في عدم توافر الحد الأدنى للشروط التي يُمكن أن تزدهر فيها الثَّقافة، مثل فرض قيود شديدة على حرية التعبير بوجه عام، أو على حرية أصحاب اتجاهات فكرية معينة في التعبير عن أنفسهم أو أن تُوكَّل أمور الثَّقافة إلى أشخاص جهلاء يتعمدون تخريبها أو نشر التفاهة أو الرجوع إلى الوراء، بلحاظ أن جزءًا كبيرًا من أزمة الثَّقافة في وطننا الْعَربي وفي معظم بلاد العالم الثالث ينتمي إلى هذا النوع ، وهي أزمة غير صحية (زكريا،٢٠١٠،ص٢١). وما قرره مفكرنا حول أزمة الثّقافة الناتجة عن التناقض بين حركة الفكر والواقع وأثرها على المثقف، يتفق مع رأي الدكتور زكي نجيب محمود؛ فقد أرجع أزمة المثّقف إلى كونه:" حَمل في رأسه أفكارًا واعتقد بأنها أفكار لا بد من بثِّها لتطوير الحياة وأشكالها، لكنه حين همَّ بنشرها صدمته العوائق التي تَحول دون ذلك النشر والتي قد تكون من صنْع الآخرين آنًا، وقد تكون آنًا آخر حيرةً في نفسه هو، وذلك إذا ما تعدَّدت أمامه سبل الوصول؛ فلا يدري ماذا يختار منها وماذا يدع (محمود،د.ت،ص١٢).

مشكلة الكم والكيف في الإنتاج الثقافي ودلالتها الاجتماعية .

تطرق زكريا لمشكلة التناقض بين الكم والكيف في الإنتاج الثقافي والأدبي والفني كأحد المسائل التي تختلف وفقا للنظام الاجتماعي ولاسيما بين النظم الرأسمالية والاشتراكية؛ وهي تُعيق تقدم المجتمع ونهضته ، وتكمن خطورة التعارض بين الكم والكيف في أنه يعكس تخلف المجتمع ثقافيا وغياب التجانس الثقافي بين طبقات المجتمع، فتكون القلة أو الصفوة هي وحدها القادرة على تذوق الأعمال الفنية الرفيعة ، بينما الغالبية العظمى من الناس تكون عاجزة عن الاستمتاع إلا بالأعمال السطحية المبتذلة،

مما يفتح الباب أمام المزيفين لخداع الجماهير بثقافة سطحية تتملق غرائزهم وتخدر عقولهم (زكريا،٢٠٠٤،ص ٦٨).

ووقف زكريا على مظاهر وأسباب انتشار ظاهرة الاهتمام بالكم- في الإنتاج الأدبي الثّقافي، على حساب الكيف، ومن مظاهرها نزوع فئة من المؤلفين إلى الإنتاج المستمر الذي لا ينقطع، ويرجع ذلك إلى غياب وافتقار الميدان الثقافي للعدد الكافي من المنتجين الخلّاقين والرغبة في تحقيق مجد شخصي أو ثراء عن طريق تضخيم الإنتاج وزيادة كميتة، وقناعة كثير من المثقفين بأن مقياس قدرة المؤلف في أي ميدان إنما تقاس بمقدار إنتاجه، ظناً منهم بأن غمر الأسواق بإنتاجهم هو أفضل وسيلة تضمن لهم الشهرة وعلو المكانة في الأوساط الأدبية، ويصبح افتخار الكاتب بعدد ما ينتج أكثر من مستوى إنتاجه، والحال هذه في مؤسسات اتخذت لنفسها شعارات كمية خالصة لا تخدم الثّقافة الحقيقية في شيء(زكريا، ٢٠٠٤،ص٦٣:٦٤).

وبرأي الباحث إن غياب الثّقافة الحقيقية في مقابل الثّقافة السطحية التي تفسد الأذواق،لا يتحمل مسئوليتها بعض المؤسسات الثقافية فقط، فالمسئولية الأكبر تقع على فئة من المؤلفين من جانب وكذا الجمهور المتلقي من جانب آخر، وكان زكريا على وعي بما يمكن أن نطلق عليه العلاقة الطردية بين المؤلفين والجمهور، فأكد أن ضعف حساسية الجمهور يشجع الفنان على الابتذال ويهبط بمستوى إنتاجه ، كما أن هبوط مستوى الفنان يؤدي بدوره إلى ضعف الحساسية الفنية للجمهور وإفساد الأذواق فيه (زكريا، ٢٠٠٤،ص٦٥)،ولذلك قد يؤدي الجمهور أثرا سلبيا على المفكر، لأن جهل الجماهير يدفع المفكر للتركيز على طريقة التعبير وليس المضمون خشية أذى الجماهير الجاهلة والاتجاهات التي تقاوم أي فكر مجدد يخرج عن إطارها الخاص (توفيق،٢٠٠٠،ص٨٤).

ويعكس الاهتمام بالكم على حساب الكيف في الإنتاج الثقافي، أثر القيّم الاجتماعية السائدة في المجتمع، وهنا تظهر أهمية تحذير زكريا من أن الثّقافة التي يغلب فيها الكم على الكيف هي ثّقافة لا تدافع عن أية قيمة إنسانية شريفة، وإنما هي ثقافة تخدر حواس الإنسان وتشل تفكيره وتجذب خياله إلى أحلام اليقظة، وتستنزف طاقته في أمور لا تنفعه، ولا تسهم في تقدم حياته، وتزدهر هذه الثقافات – إن كانت تستحق هذا الاسم – وتنتشر حتى تكون القيم التجارية هي وحدها المتحكمة فيما يقدم إلى عقول الناس وأرواحهم من إنتاج فني وأدبي (زكريا،٢٠٠٤،ص٦٦).

وبخلاف ذلك فالثّقافة الرفيعة – برأي زكريا – لكي تزدهر لابد من حماية ورعاية يكفلها سيادة قِيّم إنسانية تعلو على دوافع الربح وتتجاوز مقتضيات السوق وعوامل

العرض والطلب، لذا فهناك ارتباط لا يمكن إنكاره بين القيم الرأسمالية وبين ثّقافة الكم من جهة وبين القيم الاشتراكية وثّقافة الكيف من جهة أخرى (زكريا،٢٠٠٤،ص٦٦). ويتحفظ الباحث على التعميم الذي ذكره زكريا؛ لأننا نجد في كل مجتمع سواء اشتراكي أو رأسمالي، نمطين متباينين من الثّقافة الرفيعة والثّقافة السطحية، وإن كان يحسب له رفضه لتحويل الثّقافة إلى سلعة، تخضع لأحكام العرض والطلب ومتطلبات السوق، لما لذلك من أثر سلبي على قيّم المجتمع .

وبدوره سعي مفكرنا لتقديم حلول لمشكلة الكم والكيف، أبرزها تأكيده أهمية النهوض الاجتماعي الشامل، لما يتبعه بطبيعة الحال من نهضة ثقافية خاصة وأن مشكلة تغليب الكم على الكيف بصفة عامة:"ليست ظاهرة منعزلة، إنما هي ظاهرة وثيقة الارتباط تزداد عمومية بالتدريج حتى تنتظم المجتمع بأسره؛ لهذا ستبقى المشكلة قائمة لحين اتساع قاعدة الإنتاج الثقافي إلى الحد الكافي لاستبعاد العناصر الضعيفة والمستغلة في هذا المجال، لأن غياب المنافسة الحقيقية يؤدي إلى الابتذال وخفض مستوى مقاييسهم دائما، ولن يتحقق اتساع قاعدة الإنتاج في المجال الثّقافي إلا بتقدم المرافق المتحكمة في المجتمع (زكريا، ٢٠٠٤،ص٦٤: ٦٥).

كما أكد زكريا أهمية الدور الذي ينبغي أن يقوم به المخططون الاجتماعيون ومخططو الثّقافة للعمل على تحقيق المثل الأعلى للثّقافة بإزالة التعارض بين الكم والكيف في الإنتاج الثقافي، لتصبح الثّقافة الرفيعة هي الأكثر انتشارا في بنية المجتمع وتنحصر الأعمال السطحية المبتذلة، وكذا أهمية العمل على تلافي عيوب موجودة في الحقل الثقافي بكل فروعه، وأخطرها نزوعَ الكثير من المشتغلين في هذا الحقل إلى الإكثار من إنتاجهم دون أن يُلْقُوا بالًا إلى نوع هذا الإنتاج أو مستواه (زكريا،٢٠٠٤،ص٦٣).

مسألة : النسبية في الحكم والتقييم الثقافي وأثرها على تقدم المجتمع.

ويتفرع من مشكلة الكم والكيف في الثّقافة مسألة معايير التقييم الثّقافي ، فأكد مفكرنا أن البحث الدقيق لأوضاع الثَّقافة العربيَّة يقتضي تحديد المستهدف لنوع العقل الذي يُراد تكوينه للإنسان العربي، هل هو عقل مشدود إلى الخلف جامد في مكانه أم عقل قادر على التطلع إلى مستقبل أفضل؟ لذلك تطرق لمشكلة النسبية في الحكم والتقييم الثَّقافي، والتي تعكس الصراع الثّقافي بين هذين الاتجاهين، كما تكشف عن أحد أبعاد علاقة الثّقافة بالسلطة؛ من خلال ترك مقاليد الثَّقافة لعقول " متخلفة " عاجزة عن مخاطبة الأجيال الجديدة من الشَّباب المتطلع إلى التقدم، ولكن أنصار هذه الاتجاهات لا يعترفون بوجود أية أزمة، بل يرون أن العهد الذي يسيطرون فيه على الثَّقافة هو العهد الذي

تزدهر فيه الثَّقافة بحق (زكريا، ٢٠١٠،ص٢٤). ومن ثم نشأ صراع ثقافي بين الاتجاهات المحافظة والاتجاهات التقدمية .

وتكمن خطورة هذا الصراع الثقافي برأي زكريا لكون جوهره خلاف على مستقبل المجتمع كله، من خلال الصراع حول صياغة العقل المطلوب تكوينه؛ فأنصار الثَّقافة التَّقليديَّة يريدون عقلًا مطيعًا خاضعًا لا يتساءل ولا ينقد ويخلط بين المشكلات الحقيقية والمشكلات الفرعية أو الشكلية لمجتمعه، بل إنهم يعطوننا أحيانًا انطباعًا مفاده أن العقل شيء غير مرغوب فيه، وليس مطلوبًا أصلًا، ومن هنا كان هناك أساس موضوعي للقول بأن الثَّقافة التي يدافعون عنها ثقافة هابطة ينبغي كشفها ووضعها في حجمها الحقيقي (زكريا،٢٠١٠،ص٢٥).

لذا رفض زكريا النسبية في التقييم الثقافي؛ كي لا يترك الإنتاج الثَّقافي بلا معايير حقيقية للتقييم، مؤكدا على مسئولية المثّقف في كشف الثّقافة الهابطة والتصدي لها، ويرجع رفض مفكرنا نسبية التقييم الثقافي ؛ لأن القول بالنسبية يؤدي إلى إنكار وجود معايير موضوعية للمفاضلة بين الأعمال الثَّقافية، وبدون هذه المعايير لما جاز أن يُقال عن شكسبير إنه كاتب أعظم من أجاثا كريستي،...كما أن وجهة نظر الاتجاهات التي تسعى إلى تغيير المجتمع وتقدمه أقرب إلى التعبير عن حقيقة الثَّقافة من وجهة نظر الاتجاهات التي تدعو إلى تجميد عقله وفكره؛ فطبيعة المثقف أن يتطلع إلى الأمام، ويستخدم فكره وفنه في سبيل تحقيق صورة مستقبلية للمجتمع الإنساني، وقد أثبت تاريخ التطور الإنساني أن أعظم المثقفين على مرِّ العصور هم الذين سبقوا أزمنتهم بإنتاجهم ومهدوا الطريق لتطورات حاسمة في تاريخ البشرية (زكريا، ٢٠١٠،ص٢٥).

مسألة : تباين علاقة الثّقافة بالسلطة وفقا للنظام الاجتماعي.

علاقة الثَّقافة والسُّلطة في كل المجتمعات واضحة عند زكريا؛ لأن السُّلطة هي التي تتحكم بشكل كبير في تشكيل معالم الأزمة الثَّقافية؛ فالسُّلطة هي المسئولة عن توفير أو تعكير الجو الذي تعيش فيه الثَّقافة، وتحقيق الشروط اللازمة لنموها أو إعاقة نموها. ولا ينفي هذا وجود تباين في طبيعة أزمة الثّقافة في بلاد العالم الثالث عنها في الدول المتقدمة صناعيًّا، فالمشكلة التي تواجهها الثَّقافة في المجتمعات المتقدمة هي تحديد موقف الثَّقافة إزاء التقدم العلمي والتقني، لذا انصبت الكتابات في هذه المجتمعات على نقاش موقف المثقف من طغيان التقنية الحديثة السريعة التغير واغتراب الإنسان في عصر الآلة التي تُحوّل البشر إلى أشياء ؛ فأزمة الثَّقافة نتاج تحدي تطور العلم وأثره على روح الإنسان وملكاته الإبداعية (زكريا، ٢٠١٠، ٢٢).

أما في دول العالم الثالث فإن أزمة الثّقافة – برأي مفكرنا– هي تحدي السلطة إلى جانب العلم ، والسُّلطة قد تكون سلطة العرف الشائع أو سلطة الدين أو سلطة الحكومة، فهذه الأنماط الثلاثة من السُّلطة تؤثر في الثَّقافة تأثيرًا سلبيًّا إذا استُخدمت بطريقة تعسفية غاشمة. ويرجع التقاطع بين الثَّقافة وسلطة العرف والتقاليد والتي تدفعها لقمع الثَّقافة إلى طبيعة الإبداع الثَّقافي والذي يتطلع إلى التغيير نحو الأفضل، بينما العرف يتسم بالثبات والمحافظة على الأوضاع الراهنة، بل والتعلق بالماضي ومحاولة تثبيته، مما يؤدي إلى نشوء صراع بين الثَّقافة والقيّم السائدة (زكريا، ٢٠١٠،ص٢٣).

أما تقاطع الثّقافة مع سلطة الحكومات والسُّلطة الدينية فتظهر سلطة الحكومات بوضوح وبصورة حادة في دول العالم الثالث؛ لأن معظم الأنظمة في هذه البلاد تتدخل في الثَّقافة لفرض رأيها على مختلف أشكال التعبير الثَّقافي، وتُعيق الأعمال الثَّقافية التي لا توافق اتجاهاتها، خاصة عندما تخضع الثَّقافة لسلطة الحكومة مباشرة عن طريق المجالس والهيئات المسيطرة عليها أو تأميم مرافق إنتاج الثَّقافة ونشرها ، أما مشكلة الثَّقافة والسُّلطة الدينية في الوطن الْعَربي فقد أُثيرت منذ فجر النهضة الحديثة، على يد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والنديم، فقد أثار هؤلاء الرواد مشكلة التغيير الذي ينبغي أن يطرأ على فهمنا للدين من أجل مواجهة مطالب الحياة الحديثة، وتصدى لهم أنصار الاتجاهات التَّقليديَّة، ومن وقتها والمشكلة قائمة، وإن اتخذت شكلًا مختلفًا، وفقاً لطبيعة الظروف السائدة (زكريا، ٢٠١٠،ص ٢٣:٢٤).

جدلية الأمن الثقافي واستقلالية المثقف.

ومن امتدادات علاقة الثَّقافة بالسلطة الجدل حول وضع حدود لحرية الثّقافة حماية للمجتمع، وتعكس التباين بين المجتمعات فثمة نمط يحد من حرية الثّقافة حماية للمجتمع من الثّقافات الوافدة عليه ، وهذه المجتمعات غالبا ما تفشل ، بينما النمط الآخر من المجتمعات التي تعتمد على الحوار وإنتاج ثقافة حقيقية لمواجهة الثقافات الوافدة هي التي– تكون أكثر فاعلية وقدرة على الصمود .

ولقناعه زكريا بأن الثَّقافة لا تمثل خطرا على الناس أو المجتمع، لذا قام بتفنيد مصطلح "الأمن الثَّقافي"، والذي ظهر– في ثمانينيات القرن الماضي في ظروف مريبة – وأثبت تقاطعه مع الثّقافة رافضاً كل مبررات استخدام المصطلح بمعنى الاحتماء السلبي من الثَّقافة الأجنبيَّة لعدم فاعليته في التصدي الحقيقي للثقافات الدخيلة والفاسدة، وإنما التصدي يجب أن يرتكز على الحوار والإبداع وإنتاج ثقافة خاصة مستنيرة ومتفتحة، لمواجهة تلك الثَّقافة الانحلالية ثقافة الجريمة والجنس أو ثقافة التسلط الاستعماري التي تحاول أن تغزونا تمتلك إمكانيات تقنية ضخمة لا قِبَل لنا بمواجهتها أو مقاومتها، بما

تملكه من تلفاز وسينما ومؤسسات إعلام عالمية وأقمار صناعية(زكريا، ٢٠١٠،ص ٢٩: ٤٠).

وبنظر الباحث أن زكريا حاول إزالة الالتباس الناتج عن احتمالات توظيف مصطلح " الأمن الثَّقافي" للقضاء على حرية الفكر والإبداع في الثمانينيات مرتكزا على تقاطع المصطلح مع طبيعة الثقافة نفسها ، وطبيعة رسالة المثقف نفسه؛ فالثَّقافة الحقيقية – عنده– ليست أماناً واطمئناناً، وليست دعةً وهدوءًا، وإنما هي العيش في خطر، وهي قلق وتوثب وترقب دائم. إن الكتاب العظيم والقصيدة العظيمة والفيلم العظيم يعكر صفو حياة الإنسان ويجلب له القلق والانشغال، وكذا العمل الثَّقافي العظيم ينقل الإنسان من الرتابة والسكينة ويبعث فيه قلقًا وتمرُّدًا ويقلب مسار القيّم التي اعتاد عليها وسكن إليها، كما أن الثَّقافة كما تزدهر في ظل الأمان تزدهر أيضًا في ظل انعدام الأمان، فكم من ثَّقافة رائعة تظهر تحت الأرض في أوقات القهر السياسي أو الاحتلال الأجنبي (زكريا، ٢٠١٠،ص ٤٤:٤٥). ويتوافق ما ذكره مفكرنا عن سمة القلق كطبيعة للمُثقف المسئول مع تأكيد الدكتور سلامة موسى؛ بأن:" كاتباً بلا توتر وبلا قلق، وبلا جنون لا يساوي ثمن الحبر الذي يكتب به، فنحن نقلق ونسخط ثم نتوتر إذا كنا نجد في الوسط الذي نعيش فيه من الأخطاء والعلل ما يستحق غضبنا وتوترنا (موسى ، د.ت،ص ١٢١).

مسألة : أثر النظم الاجتماعية على استقلالية وخصوصية الثّقافة.

كان في اهتمام فؤاد زكريا مسألة خصخصة الثّقافة بمعنى ترك الثّقافة للنشاط الفردي والخاص، ولا شأن للدولة فيها على الإطلاق، حيث استعرض اتجاهين متباينين من التجارب الثّقافية، برزا منذ القرن العشرين، الاتجاه الأول يرى تدخل الدولة في الثَّقافة ويستند هذا الاتجاه إلى أن الثَّقافة ليست ترفاً وإنما حق أساسي لفئات المجتمع كافة، وتتبع مسئولية الدولة لكونها الوحيدة القادرة على إيصال الثَّقافة إلى الفئات الأضعف في المجتمع في المناطق المهشمة والنائية، كما أن الدولة هي القادرة على تقديم النواتج الثقافية بأزهد الأسعار للقطاعات العريضة من المجتمع التي تحول أعباء الحياة دون تثقيفهم، أما الاتجاه الثاني فيرفض تدخل الدولة في شئون الثَّقافة؛ استنادا إلى أن تدخل الدولة قد يقوض صفة الحرية التي هي أهم لوازم الثَّقافة، وقد يؤدي حتما إلى فرض الاتجاهات التي تخدم مصالح النظم الحاكمة ومحاربة التجديد والإبداع إذا شكل خطورة على الأوضاع القائمة (زكريا، ٢٠١٠،ص ٥٧).

وإذا كان التقابل بين تصور الاتجاهين السابقين لعلاقة الدولة بالثَّقافة يعكس التباين بين تعامل كل من النظام الاشتراكي والرأسمالي مع الثّقافة، إلا أن مفكرنا ينبهنا إلى أن المسألة ليست بهذه البساطة ؛ وذلك لأن للثَّقافة خصوصيتها التي تُكسبها استقلالا نسبيا؛

فينبغي ألا يكون موقف المجتمع منها انعكاساً مباشراً لموقفه تجاه الاقتصاد والسياسة، أو تطبيقا لنوع النظام الاجتماعي السائد ، كما أن للثّقافة علاقة وثيقة بالتنمية ، وهذا ما دفع دول العالم الثالث إلى الأخذ بمبدأ تدخل الدولة في الثَّقافة رغم اختلاف النظم الاجتماعية فيها، كما أن مبدأ تدخل الدولة في الثَّقافة يعكس أهمية الأدوار الوظيفية للثّقافة في تجاوز تحديات التنمية، فتقوم الثَّقافة بتشكيل وعي الإنسان، ولأهمية هذا الدور لا يمكن أن يترك للمصادفات أو لحسابات التلاعب في السوق، إنما يجب تدخل الدولة بكل ثقلها، حتى لا يترك للأيدي التي تتحكم فيها من أجل تحقيق مزيد من الربح (زكريا، ٢٠١٠،ص ٥٨).

المحور الثالث : مصادر الثقافة أنماطها ومصادرها.

تدهور الثّقافة أحد أوجه أزمة الثَّقافة في مجتمعنا العربي ، وقد ناقش زكريا تدهور الثّقافة من جانبين الأول: يتمثل في العقبات التي تحول دون حصول الإنسان العربي ولاسيما الشباب على قدر كاف من الثقافة الحقيقية من مصادرها، الجانب الثاني:الظواهر التي ألمت بمناخنا الثقافي، وقد اقترح حلولا لها.

الثقافة العالمية .

وبحسب مفكرنا فمصادر الثّقافة وأنماطها إمَّا عصريَّة وإمَّا قديمة، والمصادر العصريَّة بدورها قد تكون عالميَّة أو محليَّة؛ أما المصدر العصري الأول للثّقافة فهو الثَّقافة العالميَّة وتعني:"الثَّقافة التي تضم عناصر من بيئات ومجتمعات مختلفة تضافرت معا لتصنع إنتاجًا فكريًّا رفيع المستوى قادرًا على أن يخاطب الإنسان أينما كان، وعلى الرغم من غلبة الطابع الغربي على الثَّقافة العالمية إلا أن الشرق قد أسهم بدور أساسي مرتين على الأقل في العصور القديمة والوسطى، كما تشمل روافد أخرى من غير المجتمعات الغربية التَّقليديَّة ...ومن خصائصها أنها تحيط بنا من كل جانب، مما يتعذر معه أن ننعزل عنها عزلًا تامًّا حتى لو تعمدنا ذلك، ..وقد ساهمت عدة عوامل في نزوع المواطن العربي- وخاصة الشباب- لمحاكاة المظاهر الخارجية للثقافة العالميَّة دون تعمق في جوهرها الباطن ودون معرفة بالأصول التي أوصلت هذه الثَّقافة إلى وضعها الراهن (زكريا، ٢٠١٠،ص ٤٧: ٤٨).

وحدد مفكرنا العوامل التي أضعفت هذا المصدر للثّقافة، مثل سياسة نشر الجهل باللغات الأجنبيَّة، كما أن الترجمة لا تستوعب من الإنتاج الثَّقافي العالمي إلا قدرًا ضئيلًا، كما أنها مصدر غير مضمون؛لأنها انتقائية فقد يكون هدف الاختيار هو الإثارة لا الجودة، كما تفتقر للدقة في أحيان كثيرة ، ولم تسلم من الاستغلال التجاري فَيَعْمَدْ تُجار الثَّقافة إلى التسرع في ترجمة أعمال المؤلفين المشهورين لتلبية حاجة السوق على أي نحو بغض النظر عن مستوى الترجمة ومدى مطابقتها لأبسط الشروط العلمية ..لذلك لا

تنقل إلينا دائمًا أفضل ما في الثَّقافة العالميَّة، بل هي في كثير من الأحيان وسيلة لتقديم أكثر جوانب هذه الثَّقافة سطحية (زكريا،٢٠١٠،ص ٥٠: ٥١).

الاتصال الثقافي بالثقافة العالمية.

بنظر الباحث كان زكريا واضحا في تصديه للإشكاليات الثّقافية ذات الطابع السطحي والتي يُعد برزوها على السطح وتضخيمها–في حد ذاته– أحد مظاهر أزمتنا الثَّقافية، لذا نجده يعتبر حزمة من الإشكاليات الثَّقافية زوبعة في فنجان أو موضة فكرية، يروج لها أصحاب التوكيلات والبوتيكات الثَّقافية (الشيخ،٢٠٠٠، ٤٨:٤٩)، ومحصلة هذه المشكلات أنها معارك مفتعلة (زكريا،٢٠١٠،ص٩٢)أو" مراهقة ثقافية وفكرية (زكريا،١٩٨٨،ص٢٠) ومن هذه الإشكاليات افتقار موقف اتجاهات فكرية من ثقافة الغرب إلى الموضوعية. لذا رفض زكريا مقولة الغزو الفكري؛لأن الثّقافة الغربية لم تُفرض علينا بقوة مسلحة،كما أنها ثقّافة معروضة في العالم كله نجدها في اليابان والبرازيل ..ولنا حق القبول أو الرفض فنستطيع بقرار رفض الثقافة الغربية، كما أن المناهج والأساليب الغربية التي انتشرت في بلادنا لم تُفرَض علينا– باستثناء الفترة الاستعمارية – فالمناهج الماركسية أو الفينومينولوجية مثلاً أتى بها أُناس– من صميم ثقافتنا – ذهبوا بإرادتهم إلى هذه المناهج وطبقوها عندنا (الشيخ، ٢٠٠٠،ص ٤٨: ٥١).

لذا وجه زكريا انتقاداته للمثّقفين الإسلاميين والعلمانيين في نظرتهم لثّقافة الغرب وحضارته؛ فالاتجاهات الدينية تحاول تصوير الحياة والحضارات الغربية بصورة تتضمن قدراً كبيراً من التشويه، تدخل في نطاق الدعاية الأيديولوجية للوصول إلى نتيجة مؤداها أنه لا خلاص لنا إلا بالعودة إلى الهوية الإسلامية لأن الغرب منحل وفاسد ..كما أن نظرة المثقفين العلمانيين تدين الغرب لأنه مغرض وعلمه مغرض وليس موضوعيا، ولا يقترب من الشرق إلا بهدف السيطرة عليه؛ لذا يحاولون إقامة نوع من الحاجز بين الثّقافة الغربية والثّقافة الشرقية قبل الأوان وقبل أن تنضج الظروف فعلاً لكي يُقام هذا الحاجز بصورة تلقائية (الشيخ، ٢٠٠٠ ،ص ٤٥).

ويرجع دفاع زكريا عن ثقافة الغرب إلى قناعته بأهمية التفريق بين الغرب كمرحلة تاريخية استعمارية والغرب بمعنى التقدم العلمي،وهذا ناتج عن التداخل بين معنى الغرب في الحقلين السياسي والثّقافي لذا لا ينكر مفكرنا أن جريمة:" الغرب الكبرى في تاريخه الحديث هي الاستعمار، ولكنه يرى أن الاستعمار مرحلة تاريخية،لابد أن تنقضي، وبالفعل لم تبق له إلا ذيول قليلة في أماكن متباعدة، ومع ذلك فإن الاستعمار في خطابنا السياسي حقيقة دائمة، والجريمة التي ارتكبها يستحيل أن تزول (فؤاد، نحن والغرب، ١٩٩٢،ص٢٨). وفي ذات السياق تصدى زكريا للجدل حول مصطلح الأفكار المستوردة

فبين خطورة تداول مصطلحات دون التدقيق ، مُلمِحاً إلى احتمالات كونه تعبيراً مشبوهاً، فكلمة " المستورد "ميدانها الأصلي الذي تُستخدم فيه وهو ميدان التجارة والاقتصاد، لذا فتعبير الأفكار المستوردة تعبير مجازي؛ وأمثال هذه المجازات التي تجمع بين أشياء تنتمي إلى ميادين متباعدة كثيرًا ما تكون مضللة (زكريا، ٢٠١٠ ،ص ٨٥:٨٦).

ويكشف الموقف العام لزكريا من تعاطي اتجاهات فكرية مع الأفكار المستوردة عن حسّه النقدي لقصور تصور اتجاهات فكرية لعلاقة الذات بالآخر؛ فكشف عن تناقض هذه الاتجاهات من خلال مقارنة التفاعل الثقافي بين المجتمعات الأخرى وبين أوضاع عالمنا العربي؛ والذي لا تتسق فيه الأقوال مع الأفعال فنجد:" أشد الناس هجومًا على ما يُسَمَّى بـ الأفكار المستوردة هم أنفسهم الذين يطالبون بأن نستورد من الخارج كل شيء، من الإبرة إلى الصاروخ!!. فتُفتَح الأبواب لسيل الكماليات التافهة التي تربي في النفوس أسوأ العادات الاستهلاكية، وتُغلق في وجه فكرة ما أتت من عقل ينتمي إلى مجتمع آخر؟.؛ لذا لا يحق لمجتمع ما أن يحارب هذه الأفكار إذا كان يستورد كل شيء حتى العقول، ولكن يحق للمجتمع أخذ هذا الموقف إذا كان متسقًا مع ذاته في جميع تصرفاته، أي إذا كان قد قرر أن يغلق أبوابه على نفسه ويعتمد على جهوده الخاصة، ماديًّا ومعنويًّا، في تسيير كل شئونه (زكريا، ٢٠١٠،ص ٨٧).

ولم يكن دفاع زكريا عن الثّقافة العالمية بصفة عامة والغربية بصفة خاصة دفاعا مطلقا؛ لذا نجده يؤكد أهمية الفحص والفرز للأفكار المستوردة لأنها ليست كلها خيرا . فالانفتاح على الآخر له حدود وضوابط، فينبغي أَلَّا تُفتَح أبواب عالمنا العربي والإسلامي على مصراعيها أمام كل فكر مستورد ؛ فيحذر مفكرنا من الأفكار التي تتسرب إلى العقول خلسة بطرق ملتوية غير مباشرة، وتؤدي في نهاية الأمر إلى تكوين اتجاهات ضارة لدى من يتلقاها، وبخاصة إذا كان حدثًا محدود الخبرة، ومن أمثلة ذلك ما تنقله الوسائط الإعلاميَّة الشَّعبيَّة من أعمال يُفترَض أنها فنية، ولكنها مليئة بالأفكار والاتجاهات الضارة، التي يُراد منها تحقيق أغراض مرسومة مقدَّمًا (زكريا، ٢٠١٠، ص ٩١).

ولم يكنْ حال المصدر العصري الثاني المحليَّ للثّقافة –عند زكريا– أفضل حالاً؛ فمستوى القضايا التي يعالجها الكُتَّاب والمفكرون المحليون، والتي يمكن أن يجد فيها الإنسان الْعَربي زادًا ثقافيًّا يسير نحو الانحدار المستمر، والأزمة في هذه الحالة ليست أزمة في الكُتَّاب أو المفكرين أنفسهم، بقدر ما هي أزمة في المناخ الذي يكتبون فيه بما يفرضه من قيود على الفكر الحر تؤثر على الكُتَّاب ؛ فينسحب بعضهم مؤثرًا التزام الصمت على سبيل الاحتجاج أو رغبة في تجنب المشاكل، ويبتعد بعضهم الآخر عن

إثارة الموضوعات الشائكة والحساسة مكتفيًا بالكلام في موضوعات محايدة لا لون لها ولا طعم، في حين أن بعضًا منهم يجاري التيار السائد ويركب موجة التملق والمسايرة، وفي ظروف المناخ العربي يكون هؤلاء هم الأوسع انتشارًا وهم أصحاب الكلمة المسموعة، لذا كانت وسائط الأعلام العربيَّة تلجأ على نحو متزايد إلى محاربة كل ما هو جاد (زكريا، ٢٠١٠ ،ص ٤٧).

وقد انعكس تدهور الثّقافة المحلية –إذاً– على وسائط الثّقافة فيرصد زكريا تدهور أوضاع المجلات والصحف العربيَّة وافتقادها لجرعة ثقّافية كافية لبعث الحيوية في النفس والعقل معًا، كما تدنى مستوى المناقشات والمعارك الفكرية والأدبية، وغلب عليها الاتهامات المُتبادَلة بين الكُتَّاب بعضهم بعضًا، فثمة كاتب يصف الآخر بأنه عميل أو دخيل أو فاسق أو مارق أو مدسوس أو جاسوس،..وتغذية الخصومة البغيضة مما ينفر الناس من الثّقافة المحلية ، وهذه الظواهر السلبية تتجاوز نطاق الميدان الثَّقافي، وينتمي معظمها– آنذاك – إلى مجال السياسة ، ولكنها سياسة قصيرة النظر تلك التي تضحي بمصائر أجيال كاملة في سبيل مصالح مؤقتة ومكاسب محدودة (زكريا، ٢٠١٠ ، ص ٥١).

أما المصدر الأخير للثّقافة فهو الثَّقافة التَّقليديَّة، وتشمل أيضًا الكتابات الحديثة التي تعرض التراث أو تدافع عنه أو تستلهم روحه، وبرأي زكريا أن الثَّقافة التَّقليديَّة فشلت في تقديم التراث بصورة حيوية أو تجديد أو قدرة على التحدث بلغة العصر، وأرجع ذلك إلى الانتقائية في التعامل مع التراث، مما يحول إحياء التراث إلى تلوين التراث بتوظيفه وفق الأهواء(زكريا، ٢٠١٠ ،ص ٥٢: ٦٤).

المحور الرابع : النهضة الثقافية .

على الرغم من قسوة النقد الذي قدمه زكريا لتدهور الثقافة وأزمة المُثقَّف في حقبة زمنية معينة ، إلَّا أن الجانب المشرق فيما طرحه أنه لم يكن ناقدا فقط بل حاول تقديم الحلول ؛ لتحقيق النهوض الثقافي لأهميته في تقدم المجتمع ، والذي يمكن تلخصيه فيما يلي :

أولا : أهمية صياغة مشروع قومي.

ترتبط المسألة الثقافية عند مفكرنا بالتحديات والتحولات التي شهدها عالمنا العربي على مدار عقود ، وقد ألقت هذه التحديات والتحولات بظلالها على النقاش الثقافي والفكري العربي خلال ثمانينيات القرن الماضي ، وبرزت دعاوى الاعتماد على الذات بمعناها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي ، وقد انخرط زكريا في النقاش حول الجانب الثقافي لمفهوم الاعتماد على الذات كحل موضوعي للتخلص من التبعية الثّقافية . ورأى مفكرنا أن الاستقلال الثّقافي والبحث عن النضج وبناء الذات مطلب نسعى إليه

جميعاً لنقف على مستوى الندية مع أية ثّقافة أخرى في العالم، ولكن دون التسرع في مسألة بناء الذات والسعي إلى النضج قبل توافر الشروط اللازمة لذلك، معتبرا أن مرحلة السعي وراء الغرب ربما كانت مرحلة كان لابد أن تمر بها ثقافة معينة كي تستطيع أن تقف على أقدامها بعد ذلك، خاصة وأن المستوى العام للثّقافة العربية في تدهور مستمر، لان تطورنا لم يسير في مجراه الطبيعي ولكن تطورنا ضرب من الداخل بالنظم الاجتماعية – حينذاك – وضرب بالاتجاهات السلفية، وكانت النتيجة أن مستوى نقاشنا في كثير من القضايا الثقافية أشد هبوطاً من مستوى نقاشنا من مائة عام خلت (الشيخ، ٢٠٠٠، ٥٠).

لذا يؤكد زكريا أهمية صياغة مشروع قومي، لتجاوز أزمتنا الثَّقافية وتحدياتها المتعددة ، بأن يكون في قمة بنود هذا المشروع البند الثقافي؛ أي نهضة ذاتية حقيقية من دون حساسيات تجاه الماضي أو الغرب، فعندما نتجاوز حالة الفقر الثقافي ونحقق الامتلاء من خلال الإبداع ، فيمكن لهذه النهضة أن تحقق لنا الوقوف بأقدام ثابتة ، وتتطلب منا عملية النهضة الذاتية أو البناء الذاتي أن نستجمع قوانا والجرأة في النظر لتاريخنا نظرة موضوعية وعلمية من دون أن نجبن أمام قوى داخلية أو نظم اجتماعية – حينذاك – تحاول أن تتملق أشد القوى رجعية في المجتمع (الشيخ،٢٠٠٠،ص ٥٢).

لذا دعا مفكرنا إلى إعادة دراسة ثقافتنا الإسلامية بموضوعية وبمناهج جديدة، خارج إطار فكرة التقديس التي تحول دون البحث الموضوعي في جوانب معينة في التاريخ الإسلامي أو الفكر الإسلامي، .. كي نصل إلى فهم تاريخنا وحياتنا فهماً جيداً ونتجاوز الفراغ الفكري والفقر الثَّقافي.وهذا ما لا يتحقق إلا من خلال ترسيخ التفكير العقلاني؛ بأن يكون هناك في المنطقة العربية تفكير منهجي منطقي بالمعنى العام للكلمة، خاصة وأن الحد الأدنى من القواعد المنهجية المتعارف عليها في مختلف المجتمعات غير متوفر عندنا ..ألف باء، المنهجية غير موجودة (الشيخ، ٢٠٠٠ ،٥٦:٤٥).

كما دعا زكريا إلى إزالة العقبات التي تُعيق ترسيخ الفكر العقلاني والمستنير في بنية المجتمع، وأخطر هذه العقبات التطرف الديني والإرهاب الفكري والمناخ السياسي الاجتماعي المفروض علينا ، فكلها عوامل تُعيق النهضة الثّقافية الذاتية، وأدت إلى تراجع الفكر المستنير، وافتقاد الفكر الفلسفي للحد الأدنى لممارسة الفكر الحر، مما يجعل أي محاولة للتوعية والتنوير بالمجتمع ؛ تُعرِّض صاحبها لمخاطر لا نهاية لها (الشيخ،٢٠٠٠ ،ص٥٧). ولذلك فمن المؤثرات التي تعيق المفكر أنه بات مضطرا لعمل حساب الغوغاء قبل أن يعمل حساب المفكرين أمثاله، مما يُعيق الإبداع الحقيقي؛ لأن المفكر عندما يريد أن يُعبر عن أفكاره يجد نفسه يستهلك جزءًا كبيرًا من طاقته الذهنية

في طريقة التعبير وليس في مضمون التعبير حتى يتجنب أذى الجماهير الجاهلة والاتجاهات التي تترصد لأي فكر مُجدِّد أو لأي فكر يخرج عن إطارها الخاص (توفيق ،٢٠٠٠، ٨٤).

وما يقرره زكريا يأتي في السياق العام لمشروعه الإصلاحي والذي شيده عبر نقدٍ واعٍ للرؤية الدينية عند قطاع كبير من أفراد الأمة ، مقتفيا بذلك أثر الإمام محمد عبده من حيث اعتبار الدين أساسًا لتأسيس النهضة الإصلاحية ، رغبة في توضيح المعالم المرجوّة من فكرنا الديني المأمول وجوده بيننا لنحسن التعامل مع مشاكلنا (ميهوب، ٢٠٠٩، ص٤).

ويبدو للباحث أن آراء مفكرنا كانت بمثابة رد فعل على التدهور الثقافي– إبان الثمانينيات – والذي قلل من طموح زكريا في إمكانية تحقيق النهضة الثقافية حينها؛ فحصر النهضة الثقافية في مجرد نشر وإقرار مبادئ التنوير البسيطة ؛ بمعنى حق الإنسان في أن يفكر بحرية وأن يتقبل الناس أفكار البعض ، حتى ولو اختلفوا معها وأن لا يدينوا بعضهم بالخيانة والكفر وهذه المبادئ البسيطة لا تشكل فلسفةً ولا فكراً لأن مهمتها سلبية، أي تمنع عن الإنسان العدوان الفكري، لكنها لا تخلق الجديد. فالجديد يأتي بعد ذلك وحتى هذه المبادئ بحاجه إلى كفاح عشرات السنين (الشيخ، ٢٠٠٠ ،ص٥٨). لذا يُقلل زكريا من أهمية أن ينشغل المفكر العربي بالعمل على بناء فلسفة بالمعنى الشامل المذهبي المتكامل كسبيل لتحقيق النهضة الثقافية ؛لأنها فكرة ذات أصول غربية، فإذا كانت تلبي حاجةً ما في المجتمعات الغربية، فإنها لا تمثل حاجة بالنسبة لوضعنا الثقافي وأحوالنا المعيشية، فنحن غير مضطرين لمحاكاة الفكر الفلسفي الغربي في بناء مذاهب فلسفية، خاصة مع وجود مشاكل فكرية محددة عليه أن يوظف طاقاته من أجلها (الشيخ، ٢٠٠٠ ،ص ٥٥).

وانطلاقا من قناعة مفكرنا بأن الخلاف حول مشكلة الأصالة والمعاصرة في جوهره ما كان له أن يكون محلا للخلاف الحاد بين الاتجاهات الفكرية، خاصة وأن قدرا كبيرا من الالتباس أحاط بقضية العلاقة بين التراث والعودة إلى الأصول القديمة من جهة وبين التنمية المعتمدة على ذاتها، التي تضمن لمجتمعها مكانا في عالم متجدد، من جهة أخرى. لذا دعا زكريا جميع الاتجاهات الفكرية الدينية والتقدمية إلى تجاوز النظرة المحدودة للقديم والجديد إلى نظرة أكثر عقلانية تجمع بين أفضل ما في القديم وهو التراث الحي المتحرك، الذي كانت له انجازاته الرائعة في ميادين العلوم والآداب والفلسفة، وهو تراث استطاع أن يصب في نهر الثّقافة الإنسانية العظيم بوصفه رافدا من روافده الأساسية،

ويتميز بأنه قابل للنمو والحركة، وإذا بدا أنه توقف في وقت ما، فلم يكن ذلك إلا لأسباب خارجية لا سلطان له عليها (زكريا،١٩٨٨،ص٢٦)

ويردف مفكرنا موضحا أفضل ما في الجديد :" إتباع المنهج العلمي الموضوعي، وهو العقلانية والسعي إلى معرفة الحقيقة وقوانين الطبيعة والتاريخ، وهو الديمقراطية وحرية المعارضة والنقد والتعبير. وهذا هو التراث العلمي والعقلي الذي أضافته الثقافة الغربية إلى تيار الحضارة الإنسانية، في الوقت نفسه الذي كان فيه الغرب يسعي إلى استغلال العالم كله عن طريق الاستعمار الغاشم بفضل تكنولوجيته المتفوقة (زكريا، ١٩٨٨ ،ص٢٥:٢٦).

وبنظر الباحث ما ذكره زكريا في هذا الصدد لا يمثل جديداً إنما تكرار لما قد سبقه إليه الدكتور طه حسين والذي أكد على أن الطريق للتقدم هو الجمع بين خير ما وصل إليه الغرب وخير ما لدينا من تراث وماضي وكذا تَجنُّب شر ما في الغرب والآثام التي في ماضينا " فالحياة الأوروبية ليست إثمًا كلها، ولكن فيها خيرٌ كثيرٌ،كما أن الإثم الخالص لا يمكِّن من الرقي، وقد ارتقى الأوروبيون وما في ذلك شك، وإنَّ حياتنا الحاضرة وحياتنا الماضية ليست خيرًا كلها بل فيها شر كثير، والخير الخالص لا يدفع إلى الانحطاط وقد انحطت حياتنا وما في ذلك شك(حسين، د.ت ، ص٤٨: ٥٣) .

كما تُعدّ آراء زكريا امتدادًا لآراء الدكتور زكي نجيب محمود فبرأيه ليس من المهم في الحياة الثقافية أن نقول : هذه ثقافتنا وتلك ثقافة الغرباء ، وإنما هو أن نقول هذا عصر ضعيف في بنائنا الثقافي لا يؤدي بنا إلى عزة ، فلنستبدل به ذلك العنصر لأنه أفعل أثرًا (محمود ، ١٩٩٠،ص ٢٣).

ومما تجدر الإشارة إليه هو ارتباط النهضة الثقافية عند زكريا –بإصلاح التعليم العام والتعليم الجامعي ؛ لتعزيز الإنتاج الثقافي وتقديم الإضافات الجديدة خاصة مع رصد زكريا – حينذاك – وجود أزمة ثقافية وتعليمية في آن واحد ، خاصة وأن الجيل المسيطر في الجامعات ومراكز البحوث هو جيل هش وهزيل ويعيش عالةً على الآخرين، وهي–الفئة– المتحكمة في كافة المجالات (الشيخ،٢٠٠٠،ص ٥٣: ٥٤).

مسئولية الدولة لتحقيق النهوض الثقافي.

وفي إطار سعيه لإعادة الدور الوظيفي للثّقافة في تنمية الإنسان والمجتمع العربي؛ حاول وضع مجتمعاتنا العربية أمام مسئوليتها كاملة ، ويمكن إيجاز ما قدمه في هذا الصدد في تشديده على رفع مستوى تعليم اللغات الأجنبيَّة في مدارس الدولة إلى الحد الذي يسمح للجيل الحالي، كما كان يسمح للأجيال السابقة بالتزود بالثَّقافة العالميَّة ، كما حذَّر من مخاطر رسم سياسة مقصودة تستهدف في معظم الحالات التعبير عن الرأي

الرسمي وحده وتأبى على الآخرين حرية الفكر، فتضع بذلك قيدًا ثقيلًا على عقول الشَّباب كلما شاءت أن تتزود بالثَّقافة المحلية ، والعمل على تقديم التراث للأجيال الجديدة بالصورة التي تسمح لهذه الأجيال بأن تتخذ منه منبعًا من منابع ثقافتها (زكريا، ٢٠١٠،ص٥٥).

ومن مسئولية الدولة بحسب زكريا الاهتمام بالثّقافة بوصفها جزء من النهضة الاجتماعية الشاملة، فبهذه النهضة وحدها تُحلُّ مشكلة الكم والكيف في الثّقافة، لتحقيق التجانس الثقافي بين أفراد المجتمع، وتلقى أرفع الأعمال الفنية أكبر استجابة من الجماهير العريضة، وهذا ما لا يتحقق إلا من خلال التخطيط بين كل مظاهر حياة المجتمع وحدة واحدة. أما استمرار وجود تعارض بين الكم والكيف وانتشار الأعمال التافهة على أوسع نطاق وانحصار الأعمال الرفيعة على جمهور ضئيل بحيث يتحتم حمايتها من طغيان الرغبة في تحقيق الكسب المادي، فهي مشكلة ترتبط بنوع من التخلف الثقافي الذي يحتم على المجتمع أن يسعى للقضاء عليه (زكريا، ٢٠٠٤، ص ٧٠).

لما كانت الثقافة قضية مجتمع ووطن لذا يُعوِّل زكريا على مسئولية السياسيين سواء الحكومات أو المعارضة جانبا إلى جنب مع المفكرين لتجاوز الفجوة الكبيرة بين المفكرين والمنفذين ، فالمنفذ لا يأخذ أبداً بآراء المفكر فإذا شاء المفكر طرح برنامجاً مثالياً وعظيماً ولن تجد أروع منه لكن من ينفذ ذلك في الواقع ، لذا فالحل في أيدي السياسيين سواء المسيطرون أو المعارضون لهم ، ومن ثم فحلول أزمتنا الثقافية ليست بعيده عن إرادة السياسيين الذين بأيديهم القرار (الشيخ، ٢٠٠٠،ص ٥٨).

تصحيح مسار التعريب.

يعتبر التعريب أحد مظاهر الاتصال الثّقافي، كما يُعتبر أحد عوامل تحقيق النهضة الثّقافية، ولكنه في الوقت ذاته قد يكون مظهراً للتبعية الثقافية، وكان زكريا مدركا لهذين الأثرين المتناقضين للتعريب الايجابي والسلبي؛ لذا أكد أهمية أن يكون التعريب هدفًا حضاريًّا شاملًا وليس هدفاً ثقافياً في حد ذاته، لانطواء التعريب على جوانب سياسية وقومية لا تقل في أهمية عن جوانبه الثَّقافية؛ فالتَّعريب عُنصرٌ أساسي من عناصر النهضة، وكشف مفكرنا خطأ كثير من الباحثين والمثّقفين في الخلط بين نتائج حركتي التَّعريب القديمة والحديثة، دون مراعاة التمايز بينهما، والذي يحول دون أن تؤدي حركة التَّعريب الحديثة دورًا مشابهًا لذلك الذي أدته في العصر الزاهي للحضارة العربيَّة، ويكمن هذا التمايز في اختلاف السياق التاريخي والوضع الحضاري؛ فحركة التعريب القديمة تمت في إطار تفوق عربي شامل، كانت فيه الشعوب التي نقلنا ثقافتها قد

تدهورت، ولم تكن نِدًّا للأمة العربيَّة في ذاك العصر، لذا فإن حركة التَّعريب التي تتم في ظل السيادة والتفوق تختلف كُليًّا عن تلك التي تتم في ظروف التراجع والانهزام، وهي الظروف التي تميز موقفنا الراهن إزاء الحضارة الغربية(زكريا،٢٠١٠،ص٣٤:٣٥).

في المقابل فإن اتصالنا المعاصر بالحضارة الغربية من خلال تعريب نواتجها، فهو اتصال بحضارة دائمة التغير، تتخذ في كل يوم موقعًا جديدًا، وتفاجئنا دائمًا بتحولات وثورات غير متوقعة في ميادين العلم والفكر والأدب، وأيضا يُصنع التقدم العلمي والفكري عندهم لا عندنا، وتظهر الكتابات والأبحاث في بلادهم لا في بلادنا، وتظهر بلغاتهم لا بلغتنا، كل هذا جعل حركة التعريب المعاصر محدودة، نظراً لاتساع الفجوة بينا وبين الغرب في ظل التدهور الثقافي العربي، مما يضع أمام حركة التَّعريب صعوبات عملية ونظرية من الصعوبة التغلب عليها (زكريا،٢٠١٠ ،ص٣٥:٣٦).

لذا نفي زكريا إمكانية أن تكون حركة التعريب المعاصرة طريقنا إلى خلق ثقافة قومية متميزة وتحقيق الاستقلال والتخلص من التبعية الثّقافية، بل قد تدفعنا إلى الاعتماد الثقافي أكثر على الغير، ويستشهد على ذلك بالأثر السلبي الذي تركه التعريب على كثير من الكتاب والمؤلفين تستغل قدرتها على فهم اللغات الأجنبيَّة لكي تُلخص كتب الغربيين وتقدمها كما لو كانت إنتاجها الخاص، فأصبح قدر كبيرا من التأليف أقرب إلى التلخيص والنقل المباشر وانتقاء أسهل المصادر الأجنبيَّة على حساب البحث والتفكير المستقل، مما جعل التَّعريب في هذه الحالة مظهرًا من مظاهر التبعية والاعتماد على الغير، وليس مظهرا للاستقلال الثَّقافي، لذا دعا مفكرنا إلى ربط التعريب بالهدف الحضاري والقومي للدولة، وتهيئة الجو العقلي والثَّقافي الذي يتم فيه التَّعريب؛ لأن التَّعريب إذا ما حدث في إطار من التدهور الثَّقافي، قد يؤدي إلى مزيد من الاعتماد على الثقافات الأجنبيَّة (زكريا،٢٠١٠،ص ٣٨:٣٦).

وذكر مفكرنا عدداً من الأدلة للرد على الاتجاهات التقليدية الداعية للانغلاق على الذات؛ حمايةً للتراث هذه الأدلة في مجملها تنبع من تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ذاتها، والتي تبنت في عصور تقدمها وازدهارها سياسات منفتحة على الآخر مثل اقتباس نظم وإدارة الدولة من الحضارات الأخرى. ولم تجعل الحضارة الإسلامية من الخوف على خصائصها عائقاً يحول دون تقدمها، فقد كان نضج العرب الأوائل في تفاعلهم مع الآخر أحد أسباب الطفرة التي نقلتهم في عقود قليلة من حياة البداوة إلى التحضر، وما كان هذا ليحدث إلّا بتجاوز الأوائل تعقيدات التعامل مع الآخر أو الخوف منه، ولكن:"لو كان العرب الأوائل قد أخذوا بمبدأ محاربة الأفكار المستوردة بنفس الضراوة التي يحاربها بعضهم بها الآن لما استطاعوا أن ينتقلوا في عشرات قليلة من السنين من حياة

البداوة إلى حياة الحضارة، ولما تمكنوا من إعمال عقولهم في اختيار النظم الوافدة واقتباس الصالح منها دون حساسية أو تعقيدات أو خوف على أصالتهم (زكريا، ٢٠١٠،ص٨٨).

ومن شأن آراء مفكرنا أن تنبهنا إلى خطورة الدور الوظيفي للتعريب، كما تنبهنا إلى أهمية تحلى المثقف بالمسئولية فيما يترجمه حتى لا تتحول الترجمة إلى هدف في حد ذاته، ولعل هذا أبرز وجوه الاختلاف بين حركتي التعريب الحديثة والقديمة، والتي تحلَّت بالجرأة والاستيعاب وإعادة البناء؛ فيُحمَد للقدماء أنهم أسرعوا إسراعاً في تعريب علوم اليونان والفرس مما ساعدهم على استيعابها والبناء عليها والتفرد فيها ، وفي هذه الظروف تكونت اللغة العربية السليمة التي وسعت علوم الطب والنبات والحيوان والهندسة الخ (عبد العزيز، د.ت،ص٧).

ونظرا لدور التعريب في تحقيق النهضة الشاملة فكرية واجتماعية وعلمية نجد تزايد الدعوات إلى تعريب سائر علوم العصر وتدرسيها بلغتنا العربية، وذلك يتطلب:"اهتمام الدوائر الرسمية في الوطن العربي بمسألة التعريب الشامل للعلوم (السروي،٢٠١٩،ص١٣). فأصبح تعريب كافة العلوم ضرورة وحتمية قومية وحضارية ، خاصة مع وجود تجارب شبيهه مثل اليابان التي نقلت علوم العصر وكل جديد ينشأ في العلوم والتقنية إلى لغتها القومية ومن ثم استطاعت توطين علوم العصر ، مما كان سببا في الانطلاق وإبداع علما يابانيا خالصا ، وكذا فعل ماوتسى تونج في الصين ، كما اهتم لينين بإنشاء جهازا ضخما للترجمة اشرف عليه بنفسه ، ثم استخدمت الدولة السوفيتية أكثر من مليوني مترجم لجميع لغات العالم منها وإليها ، وكذا لعبت العبرة الشاملة دورا كبيرا في توطين التكنولوجيا المعاصرة (السروي، ٢٠٠٤، ١١٤:١٢٢، ١٣٤:١٣٥).

تقييم آراء زكريا

ومن نافلة القول أن اهتمام زكريا بمحاولة صياغة مشروع قومي أحد أهم ركائزه النهضة الثّقافية، يكشف عن استشرافه منذ عقود للمستقبل ؛ لأن مفهوم الاستقلال الثقافي بات من الصعوبة بمكان تحقيقه ؛ نظرا للتطور الهائل لثورة الاتصالات واستخدام أقمار الاتصالات التي تنقل ثّقافات المجتمعات ذات الإمكانات الاقتصادية والتكنولوجية الواسعة إلى كل العالم ، مما يؤدي إلى انتشار الثقافة العالمية على حساب الثقافات المحلية ؛ ومن ثم التآكل التدريجي للتعددية الثّقافية في العالم وظهور أشكال جديدة من التبعية الثقافية لمركز أو محور واحد، وسيؤدي المسار الذي ستتخذه الثقافة العالمية بنواتجها الشديدة الإغراء ونواتجها الراقية إلى زيادة حدة اغتراب الإنسان في بلاد العالم الثالث، ويجعل

الاعتماد على الذات في الميدان الثّقافي أمرا تتزايد صعوبته، وربما في أحيان كثيرة، أمرا غير مرغوب فيه !!(زكريا،١٩٨٨، ٣٧: ٤٠).

لم تَخلُ آراء دكتور فؤاد زكريا من الاضطراب والتناقض الواضح ، فعلى الرغم من إفراطه في الدفاع عن الثقافة العالمية والغربية وإنكاره للغزو الفكري إلا أنه يؤكد أن هناك بعض الأشياء قد تفرض عليك مثل (بعض البرامج التليفزيونية وأشياء من هذا النوع) لكنها في النهاية تخضع لسياسة حكومات ولا يمكن لأحد أن يفرض على حكومة من العالم الثالث أن تشترى مثلاً مسلسل " دالاس " فهذه الحكومات لها القدرة على القبول والرفض فيما يتعلق بمثل هذه الأمور (الشيخ،٢٠٠٠،ص ٤٨).

الخاتمة :

مثّلت محاولة زكريا دراسة المسألة الثقافية والمثقف ورسالته في المجتمع محورًا أساسيا في النقد الثقافي والاجتماعي عنده ، رغبة في رسم طريق للنهوض العربي ، من خلال طرحه للأدوات التي رأي أنها قد تسهم في تجاوز أزمة الثّقافة العربية للتحديات الخارجية والداخلية ، وهذا ما سيتضح في نتائج وتوصيات الدراسة .

نتائج الدراسة :

كشف البحث عن حضور قضية الثّقافة والمثقف في وعي فؤاد زكريا ، والذي لامس أبعادا عديدة وان كانت انتقاداته وليدة مرحلة زمنية معينة إلا أنها ولأهميتها تستدعي إعادة تقييم أوضاعنا الثقافية الراهنة.

كشف البحث عن وضوح العلاقة بين النقد الثقافي والأدبي والاجتماعي وبين الثقافة عند فؤاد زكريا؛ لذا أطال في محاولة ضبط مصطلح الثّقافة وأبرز التخبط الحادث نتيجة للتفاوت في استخدام المصطلح في عده حقول كعلم الاجتماع والتاريخ والانثربولوجيا .

كان زكريا قاسيا حادا؛ فيما قدمه من انتقادات طالت المناخ الثقافي والنظام الاجتماعي وقتها والمثقفين أنفسهم ، ولكن لهذه القسوة مبرراتها ؛ فمجتمعاتنا العربية لا تمتلك رفاهية تأخير العمل على تحقيق النهضة الاجتماعية والثقافية والعلمية الشاملة ، خاصة مع الطفرات العلمية والتكنولوجية والتقنية التي شهدتها الدول المتقدمة ، مما يزيد من التحديات التي تواجهها الثقافة والمثقف العربي .

نجح زكريا في عرض الكثير من الإشكاليات المرتبطة بالثقافة والمثقف مثل إقراره بأن أزمة الثقافة ملازمة لكل عصر وكل مجتمع ، لأنها ترتبط بتطلع المثقف الحقيقي للمستقبل كما ترتبط بالتناقض بين الفكر والواقع ، كما نجح في ذات الوقت في الكشف عن تباين أزمة الثّقافة والمثقف من مجتمع لآخر ومن عصر لعصر وفقا للنظم الاجتماعية والمناخ السائد الذي يمارس فيه المثقف فيه فاعليته الاجتماعية ، ويحسب لزكريا دفاعه عن حرية الفكر والإبداع

كشف زكريا عن التحديات المتعلقة بمصادر الثّقافة ووضع الحلول لها فالثّقافة العالمية تحتاج إصلاح التعليم وتوفير دراسة اللغات الأجنبية ،أما الثّقافة التراثية فتحتاج تجديد الفكر الديني وإحياء التراث بمناهج جديدة بعيد عن الانتقائية في إحياء التراث وتلوينه وفقا لاتجاهات معينة . كما نجح زكريا في إبراز اثر المناخ الاجتماعي على أوضاع

المثقفين وانتقد اهتمام الكثير بالكم على حساب الكيف وهو إن التمس لهم العذر استنادا إلى المناخ الذي يكتبون فيه إلا أن هذا لا يعفي المثقف من مسئوليته عن إنتاجه وقيمته .
جاءت مجمل آراء زكريا كاشفةً عن حسه القومي فلم تَخلُ دوافعه النقدية للمناخ الثقافي والاجتماعي من حس قومي والإحساس بالمسئولية تجاه المجتمع والتحلي بقدر كبير من المعقولية فيما طرحه من حلول لبعض المسائل مثل الاتصال الثقافي بالثقافة العالمية بصفة عامة والغربية بصفه خاصة ، فعلى الرغم من دفاعه الصريح عن الثّقافة العالمية والغربية إلا أنه يُحذِّر من تسلل أفكار تهدد المجتمع ، كما نجده في نقده الحاد للمثقفين إلا أنه يلتمس لهم العذر في أحيان كثيرة ، كما لم تسلم آراء زكريا من البعد الأيدلوجي والذي يتضح في مقارنته للمسألة الثقافية في المجتمع الرأسمالي ومجتمعات العالم الثالث والمجتمع الاشتراكي ، حيث أكد أهمية تبني الدولة مبدأ التخطيط الشامل للثّقافة ورأى عدم تقاطع ذلك مع حرية الثقافة واستقلالية المثقف .

توصيات البحث : حاول البحث الكشف عن سبل النهوض الثقافي عند زكريا، واستخلص الباحث أهم التوصيات وهي :

- أهمية صياغة مشروع قومي يكون أساسه البند الثقافي وذلك بالتزامن مع الإصلاح الاجتماعي والسياسي الشامل وتغير منهج التفكير والعقلانية والتنوير وأهمية دور المخططين الاجتماعيين ومخططي الثقافة والمفكرين في التخطيط للثقافة .
- العمل على تحقيق توازن يضمن حماية حرية الإبداع وفي ذات الوقت يحمي مجتمعاتنا وشبابنا من مخاطر الثقافات الوافدة والدخيلة عليها .
- العمل على تصحيح مسار التعريب ؛ ليخدم الأهداف القومية والحضارية والسياسية للبلاد .
- إعادة التقييم الحقيقي وفقا للأهداف الحضارية والقومية لبلادنا لمسألة علاقة القطاع الخاص بالإنتاج الثقافي سواء الأدبي والفني أو الصحافة والإعلام وكذا إعادة النظر في تقييم علاقات مؤسساتنا الثقافية بالشركات الكبرى خاصة في ظل وجود تدفق للثقافات العالمية والتي تحتاج إلى تعزيز إنتاجنا لثقافة حقيقية لصد الثقافات الدخيلة الهابطة التي تُؤثّر على شبابنا ومجتمعاتنا خاصة تلك التي تهدد قيمنا مثل ثقافة الجريمة والجنس . وهذا من خلال أهمية النظرة الموضوعية

لمسألة خصخصة الثّقافة ووسائطها ؛ لخطورتها وأهمية أخذ الدولة بمبدأ التخطيط الشامل للثقافة ، خاصة في وسائط الثقافة (الإعلام والسينما والمسرح).

- التدقيق في اختيارات مسئولي الثقافة وفقا لمعايير حقيقية تخدم النهضة الثقافية والمجتمع كله .
- أهمية النظر في التحدي الذي يواجه حكومات دول العالم الثالث من فرض أنماط ثقافية معينة ، وفقا لاتفاقيات دولية خاصة في وسائط الثقافة العربية ولا سيما السينما والإعلام .
- العمل على تجديد الفكر الديني وترسيخ النظرة الموضوعية في الدراسات التي تتناول التراث ، بما يحول دون التوظيف النفعي للتراث من قبل اتجاهات معينة ، كما يسهم في إغلاق الباب في وجه بعض الدراسات الاستشراقية المغرضة أو المغلوطة عن التراث .
- ترسيخ ثقافة الحوار والتسامح واحترام الرأي الآخر وتجاوز النقاشات السطحية بين الاتجاهات الفكرية ، لتكون نقاشات تُعالج مشكلات حقيقية وترقي بوعي شعوبنا وتنمية مجتمعاتنا والتخلص من بعض الظواهر التي قد توجد بالمناخ الثقافي مثل السير خط عشواء خلف الموضات الفكرية أو البوتيكات الثقافية ، وهي المصطلحات التي استخدمها زكريا منذ عقود ونجد الحاجة لتكرارها الآن رفضا لجعل الثَّقافة سلعة ، بتغليب هدف الربح على رسالة الوعي ، وكذا رفض خطاب الكراهية أو الاتهامات بالخيانة أو التكفير ؛ لأنها عوائق تحول دون إنتاج ثقافي حقيقي يخدم مجتمعاتنا .

المصادر والمراجع :

أولا : المصادر : أولا : كتب الدكتور فؤاد زكريا :

١- زكريا (د. فؤاد) : ومصطفي: (د.شاكر) : نحو تنمية عربية تعتمد على الذات الثقافة العربية والاعتماد على الذات – الحلقة النقاشية التاسعة – ديسمبر ١٩٨٥ – ابريل١٩٨٦ م المعهد العربي للتخطيط – الطبعة الأولى يناير- الكويت – نشر دار الشباب ١٩٨٨ .

٢- زكريا :(د. فؤاد) :

آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة- الطبعة الأولى٢٠٠٤ – الاسكندرية – مصر – دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ٢٠٠٤ .

٣- زكريا (د. فؤاد) :

خطاب إلى العقل العربي – الهيئة العامة للكتاب – مصر- ٢٠١٠ .

ثانيا : مقالات الدكتور فؤاد زكريا :

٤ – زكريا (د. فؤاد) نحو عالم يحكمه الفكر – مجلة الفكر المعاصر- سبتمبر ١٩٦٨م.

٥ – المراهقة الثقافية – مجلة العربي – العدد ٣٥١ : فبراير : ١٩٨٨ م.

٦ – نحن والغرب – مجلة التبيين – العدد : ٥ ، ١ يونيو ١٩٩٢ .

ثانيا : المراجع العربية :

٧ – الشيخ (أحمد، ٢٠٠٠) : من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب(المثقفون العرب والغرب) –الطبعة الأولى ٢٠٠٠م- القاهرة – مصر – المركز العربي للدراسات الغربية .

٨ – حسين (د. طه) :مستقبل الثقافة في مصر – هنداوي http://www.hindawi.org – .

٩ – سعيد(ادوارد، ٢٠٠٦): المثقف والسلطة – ترجمة محمد عناني- رؤية للنشر والتوزيع .

١٠ – السروي (د. السيد اسماعيل ، ٢٠٠٤) : تعريب العلوم في ضوء العبرنة الإسرائيلية- الطبعة الأولى ٢٠٠٤ – مصر – دار غريب للطباعة والنشر –.

١١ – عبد العزيز (د. محمد حسن عبد العزيز) – التعريب في القديم والحديث مع معاجم للألفاظ المعربة- القاهرة-مصر – د.ت – دار الفكر العربي .

١٢ – العروي (د. عبد الله، ١٩٧١) – أزمة المثقفين العرب تقليديّة أم تاريخانية ؟- الطبعة الأولى ١٩٧١- ترجمة د. ذوقان قرقوط – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – لبنان.

١٣ – غرامشي(أنطونيو، ١٩٧١): – قضايا الماديّة التاريخية- الطبعة الاولى ١٩٧١ – ترجمة: فواز طرابلسي – بيروت – لبنان – دار الطليعة للطباعة والنشر.

١٤ – محمود (د. زكي نجيب ، ١٩٩٠) : عربي بين ثقافتين– الطبعة الأولى ١٩٩٠– القاهرة– مصر– دار الشروق .

١٥ – محمود (د. زكي نجيب) : هموم المثقفين– https://www.hindawi.org

١٦ – مندور (د. محمد، ١٩٨٥) : – الثقافة وأجهزتها صدر الكتاب عام ١٩٥٨ – مؤسسة هنداوي ٢٠١٩ – https://www.hindawi.org .

١٧ – موسى (د. سلامة) : مقالات ممنوعة– https://www.hindawi.org –

١٨ – ميهوب (ا.د السيد عبد الستار، ٢٠٠٩) : هؤلاء المثقفون وفكرهم الاصلاحي – الطبعة الأولى ٢٠٠٩– القاهرة – مصر– مكتبة الثقافة الدينية .

دوريات :

إبداع :

١٩ – توفيق (سعيد) : حوار مع د. فؤاد زكريا – مجلة إبداع – العدد رقم ٦٠ – ١– يونيو ٢٠٠٠م – ص : ٨٤ .

٢٠ – مجمعيات – السروي (د. السيد اسماعيل) : تعريب العلوم في ضوء العبرنة الإسرائيلية – مجمعيات – نشرة غير دورية تصدر عن مجمع اللغة العربية – العدد : ٤٠ : جمادي الأولى ١٤٤٠ /يناير ٢٠١٩م – بمناسبة الاحتفال باليوم العالمي للغة العربية ٢٠١٨ – ص : ١٣ .